

الحاجب المصحفي: حياته وآثاره الأدبية تنمية واستدراك

أ. عبد العزيز السائوري

(الرباط المغرب)

ذكره ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار، وسجع له، فقال: «ومنهم جعفر ابن عثمان المصحفي الحاجب، لا بل هو العين، بل المعدن، معدن الذهب العين، بل النظراء من الناس الجسم وهو العين، بل هو الذي لو تقدم به شأو الطلق لما ذكر معه حاجب ابن زرارة، ولا استرهن كسرى قوسه وأبقى عليه عاره، وله يد في الأدب لا تعد معها أصابع النيل، ولا تجيء معها الفرات لريّ الغليل، ولا يعرف سيحون إلا ما ساح منها، ولا جيحون إلا ما أجيح لنقصه عنها» (1).

وقد أشار ابن الأبار إلى أن الحاجب الوزير أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي المتوفى سنة 982/372 كان له ديوان شعر جمع في حياته، قال: «وله شعر مدون يدل على تمكنه من الإجابة، وتصرفه في أفانين البيان» (2)، ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا، ويعدّ ضمن المفقود الأندلسي، لذا عنى بجمع شعره باحثان:

أولهما: الأستاذ العراقي محمد محمود يونس (3) من كلية التربية - جامعة الموصل، ونشره في مجلة الآداب المستنصرية، العدد الثاني عشر لسنة 1985، ص 175-204، تحت عنوان: «ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي».

وثانيهما: الأستاذ الأردني د. حسين يوسف خريوش من كلية الآداب - جامعة اليرموك، وصدر بحثه مؤخرًا ضمن حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت، الحولية

(1) مسالك الأبصار ج 17 ق 1 ص 122-123.

(2) الحلة السيرة 259/1.

(3) توفي رحمه الله عليه سنة 1987، وله أيضا دراسة مفصلة عن الحاجب المصحفي نشرت في

مجلة الآداب المستنصرية العدد العاشر لسنة 1984 تحت عنوان: «الحاجب المصحفي حياته وشعره،

دراسة أدبية تاريخية»، وكانت حرمة السيدة الأستاذة نزهة جعفر حسن قد أهدتني جميع أعماله أثناء

زيارتي للموصل بتاريخ 1988/12/12.

19، الرسالة 133، سنة 1418-1419 هـ ؛ 1998-1999، 97 ص، تحت عنوان :
«الحاجب المصحفى : حياته وآثاره الأدبية».

ولقد تجمّع لدى الباحث الأخير من شعره مائة وسبعة وستون بيتاً في خمس وأربعين مقطعة وقصيدة، منها سبع وثلاثون مقطعة، في الغزل وأوصاف الطبيعة وأدوات الحضارة، وهي تمثّل ما اصطُح على تسميته بالمرحلة الشعريّة الأولى ؛ وثماني مقطوعات، وهي تصوّر نكبته في المرحلة الأخيرة من حياته (1).

ومن الأمور المسلّم بها في صنع الدواوين الأندلسيّة «أن الاستدراك بحر لا ساحل له ولا نهاية، ولا يستطيع أحد من المحقّقين أو الباحثين - مهما أوتي من قدرة وجهد - أن يلاحق ما يصدر من نفائس الكتب وأعلاقتها بين الفينة والأخرى. لذا فإنّ ما ينشر من أعمال يظلّ عرضة للتغيير والإضافة والتّهذيب، وتكون الاستدراكات عليها مفتوحة دائماً. ولا غنى للمحقّقين من الرّجوع إليها، إذا أرادوا لأعمالهم - هذه - أن تستكمل منهجها العلمي الرّصين، وتجنّح بها نحو الكمال، أو ما يقاربه» (2).

وقد رأيت أن أستدرك على عمل د. يوسف حسين خريوش بعض ما ظفرت به من شعر الحاجب المصحفى في المصادر والمخطوطات مما لم يضمّه المجموع المطبوع استكمالاً لهذا العمل العلمي القيم.

(1) الحاجب المصحفى : حياته وآثاره الأدبية ص 36.

(2) ديوان يزيد بن مفرّغ الحميري - تنمة واستدراك ص 103.

حرف الباء

(1)

وفيها (1) كتب له (2) المصحفي من المطبق بهذه الرسالة :

« يامولاي إنك أطعت الله فأيدك، وعصيناه فأمكن منا يدك، وهكذا يكون ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وأنت بين انتقام تشفي به نفسك، وتجاوز فتضاعف به إلى ما لا نهاية أجرک، فإن الله تعالى يقول وقوله الحق : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (3)، وهذا ما لا نبغعه وإن فاق فضلنا، ولا نباريه وإن جل عملنا، وعلمي يا مولاي بعظم ذنبي يأسيني، وبسعة كرمك تطعمني، فأیأس یأس مهلك، وطمع مدرك، والعقوبة حقت، والتجاوز فضلك، وألزمها لك أولاهما بك، وإن لم أكن أهلا بعفوك، فلتكن عقوبة مثلك، وكل الحكم إلى كرمك المشهور، وعدلك المأثور، إن شاء الله تعالى » (4).

(1) أي غزاة شنت رومان.

(2) أي المنصور محمد بن أبي عامر.

(3) سورة المائدة آية 32.

(4) أشار ابن الأبار في الحلة السيرة 218/1-219 إلى هذه الرسالة دون أن يثبت نصها، كما أورد الأبيات المذيلة بها، ونسبهما إلى أبي بكر عبد الله بن عبد العزيز الملقب بالحجر المتوفى سنة 1002/393، فقال : «وله مع رسالة حين ظفر به المنصور محمد بن أبي عامر في شوال سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، وكان قد هرب أمامه إلى بلد الروم فسجنه بالمطبق بعد أن طيف به على جمل وهو مقيّد».

وأنا أقول : [من الطويل] :

مع الله لم يُعجزه في الأرض هاربُ
سوى حذر الموت الذي أنا راهبُ
ولكن أمر الله لابد غالبُ
كما اجتز ميتا في رحى الحرب سالبُ
وربّت ظنّ ربه فيه كاذبُ
وتركك منه واجبا لك واجبُ
ويجزيك منه فوق ما أنت طالبُ
على قدرها قدرُ الذي أنت واهبُ
ولا ردّ دون السعي عندك⁽³⁾ راغبُ
وعمت عموم الغيث منك المواهبُ
لمتلفها من حاجب الملك حاجبُ
يسير بها في الأرض ماشٍ وراكبُ
فيصرفني الخطب والذهر عاتبُ
التخريج : ذكر بلاد الأندلس ص 192-193 (الأبيات 1-10 فقط)،

1- فررت فلم يُغن الفرار ومن يكن
2- ووالله ما كان الفرار لحالة
3- ولو أنني وقفت للرشد لم يكن
4- وقد قادني قهرا⁽¹⁾ إليك برمتي
5- وأجمع كلّ الناس أنك قاتلي
6- وما هو إلا الانتقام فتشتفي
7- وإلا ففعفو يرتضي الله فعلة
8- ولا نفس إلا دون نفسك فليكن
9- فما خاب من جدواك من جاء سائلا⁽²⁾
10- وقد منحت كفاك ما يعجز الوري
11- وإن حمّ تأخير لنفسك فليكن
12- فما زل سباقا إلى كلّ خصلة
13- فلا انفك لي مولى ألوذ بعزّه

والحلة السبراء 218/1-219 (الأبيات 1-13).
(2)

وقوله أيضا : [من الطويل]

ولكن لتعذيب الفؤاد المعذب
بأعذب من صوب الغمام وأطيب

1- وما كان من عطف علي حديثها
2- حديث لو استسقت به الصخر جادها
التخريج : الرائق بأزهار الحقائق ص 61.

(1) الحلة : «جرا».

(2) الحلة : «مذ كنت سائل».

(3) الحلة : «المبتغي عنك».

حرف التاء

(3)

قال ابن حيّان : وله في ذكر بنائه ⁽¹⁾ للقصر في المدينة التي ابتناها في محلّته التي أرساها على مدينة سرقسطة عند حصر التجيبي ⁽²⁾ للأخذ بمُخَنَقَه : [من المتقارب]

- 1- أيا زهرة المجد والمكرّمات
 - 2- ويا شبه البذر في المُدَجِّنَات
 - 3- ويا ثامن الخُلَفَاء الذين
 - 4- وَمَنْ تَنَجَّلِي مُظْلِمَاتِ الْأُمُور
 - 5- وَمَنْ تَرَكَ الذَّهْرُ إِحْسَانَهُ
 - 6- أَجَلَّكَ أَنْ تَخْتَوِي بِالظَّنُونِ
- قال ابن حيّان : وهي أبيات كثيرة.

التّخريج : المقتبس 49-48/5.

حرف الدال

(4)

- ولأبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي الوزير بقرطبة : [من الطويل]
- 1- بِأَيِّ لِسَانٍ أَشْكُرُ النِّعْمَةَ الَّتِي عَلَيَّ تَوَالِي كُلِّ حِينٍ جَدِيدَهَا
 - 2- جَمَعْتَ لِي الْأَمَالَ طَيِّبَةَ الْجَنَّا فَلَمْ تُبْقِ لِي أُمْنِيَةً أَسْتَزِيدُهَا
- التّخريج : لمح السّحر من روح الشّعْر وروح الشّحْرِ ق 2 ص 16.

(1) أي الخليفة الناصر لدين الله.

(2) هو محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة، وكان ذلك في سنة 933/322. انظر : المقتبس

334/5

(5)

وأُنشدته للوزير أبي الحسن جعفر الأندلسي فيما يهمل كله : [من الرمل]

- 1- رَوَا مَلَحَ الْعِيَادِ مَعَاهِدًا لِسَعَادِ
 - 2- أُمُوَالِهِ لِعِطَاءِ آرَاؤُهُ لِسَسَادِ
- التخريج : الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب 338/2.

حرف السين

(6)

وله في وصف الخمر : [من الطويل]

- 1- ولما تولى بابنة الكرم جائراً عليها فأصلها بزعمكم الشمساً
 - 2- ولم يبق من جثمانها غير جلدها غدت للذي تحويه من روحها رمساً
 - 3- وصلت بها الماء القراح محافظاً فراح لها جسماً وراحت له نفساً
- التخريج : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق 2 م 1 ص 109.

حرف الصاد

(7)

قال ابن حيّان : ولأبي الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصنف، كاتب ولي العهد الحكم بن الناصر لدين الله السامي المحل وقتة ذلك، في الاشتغال على فني البلاغة من النثر والنظم بالتبريز فيهما من قصيدة امتدح بها الخليفة الناصر لدين الله، وذكر وفادة العنجة المتملكة للشكس إليه، أولها : [من الطويل]

- 1- لي الأمن من نهش الليالي وعصها وإحداثها مخشيتها وممضها
 - 2- وكيف يخاف الدهر عند خليفة قدير على بسط الأمور وقبضها
- التخريج : المقتبس 47/5.

حرف القاف

(8)

وقال أبو الحسن جعفر بن عثمان الوزير : [من الكامل]

- 1- وكامها برد الحياة وبرده يُهدى لظمان الضلوع مشوق
 - 2- روض يدل جناه أن بقاعه ممتورة من عذب ذاك الرقيق
 - 3- وبأن ذاك الثغر من حصائه وثراه من ذاك اللّمي الموموق
- التخريج : الرائق بأزهار الحقائق ص 63.

حرف الّام

(9)

قال يصف تذللّه في الحبّ (1) : [من الخفيف]

- 1- قد رضيّت الهوى لِنفسيّ خلّا ورأيت المّمات في الحبّ سهلا
 - 2- وتذللّت للحبيب وعزّ الصّ صبّ في سنّة الهوى أن يُذلاً
- التخريج : يتيمة الذّهر 187/1 (مخطوط دار الكتب المصريّة رقم 7753 أدب ميكروفيلم رقم 3087)، نقلا عن قضايا أندلسيّة ص 279.

(10)

قال ابن حيّان : وله في وقت انتقال الناصر لدين الله عن سرقسطة : [من الطويل]

- 1- على أيمن الأوقات كان ارتحالكاً وفي أيمن الساعات كان احتيالكاً
- 2- تنقلت عن دار الشقاق مظفراً وقد صال بالمخدول فيها صيالكاً
- 3- وجاريت ذا السيف العريض بميتة أرت مستجيش الشراك كيف اغتيالكا
- 4- وأفقلت عنهم والمنايا صواباً تسيل بها في ساحتيهم سجالكا
- 5- إذا ما الكرى رام اغتلاق جفونهم تحطفه بالخوف عنها خيالكا
- 6- وإن ذهبوا للشر في الأرض مذهباً تراءى لهم في كلّ أفق مثالكاً

(1) البيتان ليسا في طبعة محيي الدين عبد الحميد.

- 7- هَلِ الْأَجَلُ الْمَرْهُوبُ إِلَّا صَيَالُكَأ
 8- بَقِيَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُمَلَّكَأ
 أم الْأَمَلُ الْمَرْغُوبُ إِلَّا نَوَالُكَأ
 فَمَا الرُّوضَةُ الزَّهْرَاءُ إِلَّا حَلَالُكَأ
التخريج : المقتبس 49/5.

حرف الميم

(11)

قال في الحبّ والهوى ⁽¹⁾ : [من الطويل]

- 1- أَعِدْ نَظْرًا وَاسْتَوْقِفِ الطَّرْفَ مُنْعَمًا
 2- سَرَى الْحَبِّ فِي أَخْلَاقِهِ فَأَرْقَّهَا
 3- وَلَسْتَ تَرَاهُ سَائِلًا مِنْكَ عَطْفَهُ
 4- فَإِنْ جُدْتَ لَاقَتْهُ الْحَيَاةُ كَرِيمَةً
 تَجِدُ كَلِفًا صَبًّا بِحَبِّكَ مُغْرَمًا
 وَعَلَّمَهُ أَحْكَامَهُ فَتَعَلَّمَأ
 حَذَارًا مِنَ التَّفْتِيلِ إِلَّا تَوَهَّمَا
 وَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَاقَى الْجِمَامَ مَقْدَمًا

التخريج : يتيمة الذهر 187/1 (مخطوط دار الكتب المصرية رقم 7753 أدب ميكروفيلم رقم 3087)، نقلًا عن قضايا أندلسية ص 252.

(12)

وقال الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان واصفا ارتياحه للريح الغربية وتبرمه من الشرقية : [من الطويل]

- 1- أَقُولُ لِمَلَّاحِ السَّفِينَةِ لَا تَعُجْ
 2- وَنَازِعِ إِلَى الْغَرْبِيِّ بِسِي فَلَعَلَّهَا
 3- فَتَهْتَرَّ نَفْسِي وَهِيَ فِي قَبْضَةِ الْجَوَى
 4- إِذَا اهْتَرَّ غُصْنٌ ذَابِلٌ ⁽²⁾ خَطَرَ الْحَيَا
 إِلَى الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ بِي فَهَوِ جَاجِمُ
 تَهَبْ لَنَا تِلْكَ الرِّيَّاحُ النَّوَاسِمُ
 وَيَرْجِعْ بِالْوَصْلِ السَّرُورُ الْمُصَارِمُ
 عَلَيْهِ وَأُضْحَى وَهُوَ فِينَانُ نَاعِمُ

التخريج : الرائق بأزهار الحقائق ص 95.

(1) الأبيات ليست في طبعة محيي الدين عبد الحميد.

(2) في الأصل : «ناعم»، والتصويب من الجاشية.

(13)

قال ابن حيّان : وله أيضا من أخرى ميمية مطولة في ذكر بُروزه ⁽¹⁾ الفخْم لَغَزُو سَرَقُسطَة أكثر فيها التَّشبيب ثم قطع إلى المديح، فقال : [من الطويل]
 1- ويوم بدا فيه الإمام مُبَرِّزًا أَهَبَ لِنَفْسِي سَلْوَةً مِنْ غَرَامِهَا
 قال ابن حيّان : وهي أبيات كثيرة أتت في آخرها على شعره.
التخريج : المقتبس 48/5.

حرف النون

(14)

وقول الوزير أبي الحسن ⁽²⁾ جعفر بن عثمان الأندلسي : [من الطويل]
 1- حَدِيثٌ لَوَّانٌ الْعَصْمُ نَتْنَى بِهِ انْتَنَتْ
 وَقَدْ مُلِئَتْ أَحْشَاؤُهُنَّ حَنِينًا
 2- جَرَى حَيْثُ لَمْ تَجْرِ الْعَيُونُ فَأَوْدَعَ الـ
 مَسَامِعَ سِحْرًا وَالْعَيُونَ فَتُونَا
التخريج : الرائق بأزهار الحقائق ص 61.

(15)

قال ابن حيّان : وله في أخرى مطولة ذكر فيها أسفاره ⁽³⁾ في الجهاد وتعيينته على
 الوادي الأحمر في غزاته المذغوة بوخْشمة ⁽⁴⁾، خربها الله : [من الطويل]
 1- كَفَى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِهَذِهِ الـ
 رَعِيَّةٍ مَأْمُولًا يُسَرُّ حَزِينُهَا
 2- وَيَحْفَظُ قَاصِيَهَا وَيَعْلَى وَضْرِيغُهَا
 وَيُنْعَشُ مُكْدِيهَا وَيَفْدَى رَهْيْنُهَا
التخريج : المقتبس 48/5.

(1) أي الخليفة الناصر لدين الله.

(2) في الأصل : «أبي الحسين».

(3) أي الخليفة الناصر لدين الله.

(4) عن غزوة وخْشمة. انظر : المقتبس : 333/5 وما بعدها.

(16)

وقول أبي الحسن جعفر بن عثمان ⁽¹⁾ الوزير : [من الخفيف]

- 1- بأبي مَنْ إِذَا تَبَاعَدَ عَنِّي زاده الشَّوْقُ مِنْ فَوَادِي دُنُوًّا
 - 2- مَا هَفَّتْ بِي رِيحُ التَّذْكَرِ إِلَّا رَاحَ قَلْبِي إِلَيْهِ يَهْفُو هُفُوءًا
 - 3- لَمْ أَزَلْ حَانِي الْجَوَانِحِ وَالْقُلُوبِ عَلَيْهِ مُذْ بَانَ عَنِّي حُنُوءًا
- التَّخْرِيجُ : الرائق بأزهار الحقائق ص 72.

(1) في الأصل : «سليمان».

المصادر والمراجع

- 1- الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب تأليف محمد بن الطيّب بن أحمد الشريف العلمي المتوفى سنة 1721/1134 - دراسة وتحقيق محمد بن عبد الجليل - الجزء الثاني - رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها - إشراف الأستاذ عبد القادر زمامة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر المهرز، فاس - السنة الجامعية 1988 - 1989.
- 2- الحاجب المصحفي : حياته وآثاره الأدبية - د. حسين يوسف خريوش - حويات كلية الآداب - جامعة الكويت - الحولية التاسعة عشرة - الرسالة الثالثة والثلاثون بعد المئة - سنة 1999/1419.
- 3- الحلة السيرة لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار المتوفى سنة 1259/658 - الجزء الأول - حققه وعلّق حواشيه د. حسين مؤنس - الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة الطبعة الأولى 1963.
- 4- ديوان يزيد بن مفرّغ الحميري - تنمة واستدراك - عباس هاني الجراح - مجلة (العرب) دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض، ج1، 2، س 34، نوفمبر - ديسمبر 1998، ص 103.
- 5- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفى سنة 1147/542 - القسم الثاني، المجلد الأول - تحقيق د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت 1979/1399.
- 6- ذكر بلاد الأندلس وفضلها وصفقتها وذكر أصقاعها لمؤلف مجهول - تحقيق وترجمة لويس مولينا - المجلس الأعلى للأبحاث العلمية - المعهد ميغيل أسين - مدريد 1983.

- 7- الرائق بأزهار الحقائق لأبي الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي البرقي المتوفى في النصف الثاني من القرن 11/5 - مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 3853.
- 8- قضايا أندلسية - د. بدير متولي حميد - دار المعرفة القاهرة الطبعة الأولى 1964.
- 9- لمح السحر من روح الشّعْر وروح الشّحر لأبي عثمان سعد بن أحمد بن إبراهيم التجيبي المرّي المشهور بابن ليون المتوفى سنة 1349/750 - القسم الثاني - دراسة وتحقيق سعيد بن الأحرش - رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها - إشراف د. عبد السلام الهراس - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر المهرز فاس - السنة الجامعية 1983 - 1984.
- 10- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين بن فضل الله العمري المتوفى سنة 1348/749 - الجزء 17، القسم الأول - تقديم وتحقيق الهادي علمي عروسي - رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها - إشراف د. عبد السلام الهراس - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر المهرز فاس السنة الجامعية 1993/1414.
- 11- المقتبس لابن حيان القرطبي - الجزء الخامس - اعتنى بنشره ب. شالميتا، وف. كورينطي، وم. صبح. المعهد الإسباني العربي للثقافة بمadrid، وكلية الآداب بالرباط 1979.
- 12- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة 1037/429 - مخطوط دار الكتب المصرية رقم أدب 7753 ميكروفيلم رقم 3087.